حنكتني نوائب الدهر

بلغه أسر ولديه: غصوب وميسرة، مع صديق له من بني عبس يقال له عروة بن الورد، في حصن العقاب، وهو مكان في اليمن، فخرج يريد خلاصهم، وقال:

[الخفيف]

أَحْـرَقَـتْـنـي نـارُ الـجَـوَى وَالـبـعـادِ،
بَـعْـدَ فَـقْـدِ الأَوْطَـانِ وَالأَوْلادِ[١]
شـابَ رَأسـي فَـصَـارَ أَبْـيَـضَ لَـوْنـاً،
بَـعْـدَمـا كـانَ حـالِـكـاً بـالـسّـوَادِ[٢]
وَتَـذَكّـرْتُ عَـبْـلَـةً يَـوْمَ جَـاءَتْ
لِـوَداعـي وَالـهَـمُّ وَالـوَجْـدُ بَـادي[٣]
وَهـي تُـذْرِي مـن خِـيـفَـةِ الـبُـعْـدِ دَمْـعـاً
مُـسْـتَـهِـلّاً بـلَـوْعَـةٍ وَسُـهَـادِ[٤]

= في الحروب، وضحاياه كثيرون أحياء يعيشون مع الأحباء، ولم يوسّدوا في قبور.

(١)، (٢) نزل بساحة الشاعر الحزن، فثمّة نار حارقة تهبّ بين ضلوعه؛ إنها نار الحبّ والبعد عن الأحبّة؛ إنهم البنون دعامة المستقبل والوطن موْئل الأمن والاستقرار. والزمن يمرّ سريعاً، فإذا بسواد شعره سرعان ما يتحوّل إلى شيب مكروه يُنبئ بالعجز وقرب الموت.

(٣)، (٤) إنها ذكرى أليمة، لقد حملت الشاعر إلى الماضي حينئذٍ جاءت عبلة كاسفة البال، دامعة العينين، حزينة ارتسم الهمّ على محيّاها، جاءت مودّعة؛ إنه الدمع مصحوب بألم الأرق ولوعة البعد.

قـلـتُ : كُـفّـي الـدّمـوعَ عَـنْـكِ ، فَـقَـلْـبـي
ذابَ حُـزْنـاً وَلَـوْعَـتـي فـي ازْدِيـادِ[١]
وَيْـحَ هـذا الـزّمـانِ كـيْـفَ رَمـانـي
بـسـهَـامٍ صَـابَـتْ صَـمـيـمَ فُـؤادِي[٢]
غَـيـرَ أنـي مِـثْـلُ الـحُـسـامِ إذا مـا
زَادَ صَـقْـلاً جـادَ يَـوْمَ جِـلادِ[٣]
حَـنّـكَـتْـنـي نَـوَائِـبُ الـدّهْـرِ ، حـتـى
أوْقَـفَـتـنـي عَـلـى طَـرِيـقِ الـرّشـادِ[٤]
ولَـقـيـتُ الأبْـطَـالَ فـي كـلّ حَـرْبٍ ،
وَهَـزَمْـتُ الـرّجـالَ فـي كُـلّ وَادي[٥]
وَتَـرَكْـتُ الـفُـرْسـانَ صَـرْعـى بـطَـعْـنٍ
مـن سِـنـانٍ يـحـكـي رُؤوسَ الـمَـزَادِ[٦]
وَحُـسـامٍ قَـد كـنـتُ مـن عـهـدِ شَـدّا
دٍ قَـدِيـمـاً وَكـانَ مِـنْ عَـهْـدِ عَـادِ[٧]

(١) أثار ذلك المنظر ألم عنترة ، فإذا به يطلب من عبلة أن تُقلع عن البكاء فقلبه أكمده الحزن ولوعته تضطرد بسرعة عظيمة وتتسع دائرتها حتى تستحوذ على كيانه ووجوده .

(٢)، (٣) ينعى الشاعر على الزمان فعله المذموم به كيف أنه صوّب سهامه التي نجح بها فاخترقت أعماق قلبه . والردّ على هذا الفعل الشنيع موقف صلب من قلبه ؛ إنه كسيف قاطع كلّما استعمل في الحرب والجلاد ازداد صقلاً ونضجاً .

(٤)، (٥) لقد جعلت المصائب والويلات من الشاعر رجلاً مجرّباً يعرف كيف يتخطى الصعاب في طريق مليء بالأشواك ، فلقي الأبطال وصرعهم فإذا بهم يتناثرون في كلّ وادٍ .

(٦)، (٧) لقد تخلص الشاعر من خصومه الفرسان الشجعان وقد أثخنهم جراحاً =

وَقَـهَـرْتُ الـمُـلـوكَ شَـرْقـاً وَغَـرْبـاً،
وَأَبَـدْتُ الأَقْـرَانَ يَـوْمَ الـطِّـرَادِ[١]
قَـلّ صَـبْـرِي عَـلـى فِـرَاقِ غَـصُـوبٍ
وَهْـوَ قَـدْ كـانَ عُـدّتـي وَاعْـتـمَـادي[٢]
وَكَـذَا عُـرْوَةٌ، وَمَـيْـسَـرَةٌ حـا
مـي حِـمَـانـا عِـنْـدَ اصْـطِـدامِ الـجِـيـادِ[٣]
لأَفُـكّـنَّ أَسْـرَهُـمْ عَـنْ قَـرِيـبٍ
مِـنْ أَيَـادي الأَعْـداءِ وَالـحُـسّـادِ[٤]

= برمحه، فإذا بجراحهم كأنها أفواه القرب تنهمر، فتؤذن بموت محقّق. وهو لا يكتفي باستعمال رمحه بل إنه يستعمل سيفه في قتاله، إنه حسام قديم العهد، توارثه أجداد من عهد عاد حتى حصل عليه شدّاد وبدوره أدّى شداد الأمانة إلى ابنه عنترة.

(١) إن الشاعر أداة غلبة وقهر لملوك ظلمة، يجول عليهم في شتّى أركان الأرض شرقاً وغرباً فيقضي عليهم ليخلص الرعيّة من جَوْرهم ولقد أباد الأكفاء من الفرسان في ميدان الكفاح فأصبحوا جاثمين.

(٢)، (٣) لقد نفد صبر الشاعر لفراق ولده غصوب، وكان قد هيّأه ليكون عوناً له في الملمات، وقد أسنّ فلا بدّ له من معين، وكذلك كان اشتياقه إلى عروة بن الورد، وهو شاعر الصعاليك في بني عبس ومعينهم وحاميهم، وميسرة ذلك البطل الصنديد أحد حماة بني عبس يوم الزحام، إنه ولده المحبوب.

(٤) إن الشاعر عازم على فكّ هؤلاء الأسرى من أيدي الأعداء ولن يتوانى أو يتكاسل في مسعاه.